كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

بيان ذم الغضب:

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٦]، ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة. وروى أبو هريرة أن رجلًا قال يا رسول الله، مرني بعمل وأقلل، قال: «**لا تغضب**» ثم أعاد عليه فقال: «**لا تغضب**» [رواه البخاري]، وقال ابن عمر: قلت لرسول الله ﷺ: قل لي قولًا وأقلله لعلي أعقله. فقال: «**لا تغضب**» فأعدت عليه مرتين، كل ذلك يرجع إليّ لا تغضب [رواه أبو يعلى وحسنه الحافظ العراقي]، وعن عبد الله بن عمرو، أنه سأل رسول الله ﷺ، ماذا ينقذني من غضب الله؟ قال: «**لا تغضب**» [رواه الطبراني وحسنه العراقي] وقال ابن مسعود، قال النبي ﷺ: «**ما تعدون الصرعة فيكم؟**» قلنا الذي لا تصرعه الرجال. قال: «**ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب**» [رواه مسلم] وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**» [متفقٌ عليه]. وقال سليمان بن داود عليه السلام: يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم. وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ [آل عمران: ٣٩]، قال السيد الذي لا يغلبه الغضب. وقال أبو الدرداء: قلت يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة. قال: «**لا تغضب**» [رواه الطبراني في الكبير والأوسط وحسنه الحافظ العراقي]، وقال يحيى لعيسى عليهما السلام: لا تغضب، قال: لا أستطيع أن لا أغضب، إنما أنا بشر. قال لا تقتن مالًا، قال هذا عسى.

الآثار: قال الحسن: يا ابن آدم، كلما غضبت وثبت، ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار. وعن ذي القرنين، أنه لقي ملكًا من الملائكة، فقال علمني علمًا أزداد به إيمانًا ويقينًا،

قال لا تغضب، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فرُدَّ الغضب بالكظم، وسكنه بالتؤدة. وإياك والعجلة، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك. وكن سهلًا لينًا للقريب والبعيد، ولا تكن جبارًا عنيدًا.

وعن وهب بن منبه، أن راهبًا كان في صومعته، فاراد الشيطان أن يضله، فلم يستطع فجاءه حتى ناداه، فقال له افتح فلم يجبه، فقال افتح، فإني إن ذهبت ندمت فلم يلتفت إليه فقال إني أنا المسيح قال الراهب: وإن كنت المسيح فما أصنع بك؟ أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد؟ ووعدتنا القيامة؟ فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك. فقال إني الشيطان، وقد أردت أن أضلك فلم أستطع، فجئتك لتسألني عما شئت فأخبرك. فقال ما أريد أن أسألك عن شيء قال: فولى مدبرًا. فقال الراهب ألا تسمع؟ قال: بلى. قال: أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ قال الحدة. إن الرجل إذا كان حديدًا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة.

وقال خيثمة: إن الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم، وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه، وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه. وقال جعفر بن محمد، الغضب مفتاح كل شر. وقال بعض الأنصار: رأس الحمق الحدة، وقائده الغضب. ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم، والحلم زين ومنفعة، والجهل شين ومضرة، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه. وقال مجاهد: قال إبليس: ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث. إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقدناه حيث شئنا، وعمل لنا بما أحببنا. وإذا غضب قال بما لا يعلم، وعمل بما يندم. ونبخله بما في يديه، ونمنيه بما لا يقدر عليه. وقيل لحكيم: ما أملك فلانًا لنفسه قال إذًا لا تذله الشهوة. ولا يصرعه الهوى، ولا يغلبه الغضب، وقال بعضهم إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار. وقيل اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل. وقال عبد الله بن مسعود: انظروا إلى حلم الرجل

عنـد غضبه وأمانته عند طمعه، ومـا علمك بحلمه إذا لم يغضب وما علمك بأمانته إذا لم يطمع.

وكتـب عمـر بن عبد العزيز إلى عاملـه: أن لا تعاقب عند غضبك على رجل ولكن فاحبسـه، فإذا سـكن غضبـك فأخرجه فعاقبه على قـدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسـة عشرة سـوطًا. وقال عـلي بن زيد: أغلظ رجل مـن قريش لعمر بن عبد العزيـز القول، فأطرق عمر زمانًا طويلًا، ثم قال أردت أن يسـتفزني الشيطان بعز السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا. وقال بعضهم لابنه: يا بني، لا يثبت العقل عند الغضب، كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسـجورة. فأقل الناس غضبًا أعقلهم. فإن كان للدنيا كان دهاء ومكرًا، وإن كان للآخـرة كان حلمًا وعلمًا، فقد قيل الغضب عدو العقل، والغضب غول العقل، وكان عمـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا خطـب قال في خطبته: أفلح منكم من حُفِظَ من الطمع، والهوى، والغضـب. وقـال بعضهم: من أطاع شـهوته وغضبه قـاداه إلى النار. وقال الحسـن: من علامـات المسـلم قـوة في دين، وحزمٌ في لين، وإيـمانٌ في يقين، وعلـم في حلم، وكيس في رفـق، وإعطـاء في حـق، وقصد في غنـى، وتجمل في فاقة، وإحسـان في قـدرة، وتحمل في رفاقـة، وصـبر في شـدة لا يغلبه الغضـب، ولا تجمح بـه الحمية، ولا تغلبه شـهوة، ولا تفضحه بطنه، ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته، فينصر المظلوم، ويرحم الضعيف، ولا يبخل، ولا يبذر، ولا يسرف، ولا يقتر، يغفر إذا ظلم، ويعفو عن الجاهل، نفسه منه في عناء، والناس منه في رخاء.

وقيل لعبد الله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة. فقال ترك الغضب. وقال نبـي مـن الأنبياء لمن تبعه: مـن يتكفل لي أن لا يغضب، فيكون معـي في درجتي، ويكون بعـدي خليفتي. فقال شـاب من القوم: أنـا. ثم أعاد عليه، فقال الشـاب: أنا أوفى به فلما مات كان في منزلته بعده، وهو ذو الكفل. سُـمِيِّ به لأنه تكفل بالغضب، ووفى به. وقال وهب بن منبه: للكفر أربعة أركان: الغضب، والشهوة، والخرق، والطمع.

بيان حقيقة الغضب:

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرَّضًا للفساد والموتان، بأسباب في داخل بدنه، وأسباب خارجة عنه، أنعم عليه بما يحميه عن الفساد، ويدفع عنه الهلاك، إلى أجل معلوم سماه في كتابه. فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان، وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء، كالموكل به في جبر ما انكسر، وسد ما انثلم، ليكون ذلك حافظًا له من الهلاك بهذا السبب.

وخلق الله طبيعة الغضب من النار، وغرزها في الإنسان، وعجنها بطينته، فمهما صد عن غرض من أغراضه، ومقصود من مقاصده، اشتعلت نار الغضب، وثارت به ثورانا يغلي به دم القلب وينتشر في العروق، ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار، وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر. فلذلك ينصب إلى الوجه، فيحمر الوجه والعين، والبشرة لصفائها، تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم، كما تحكي الزجاجة لون ما فيها. وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه، واستشعر القدرة عليه. فإن صدر الغضب على من فوقه، وكان معه يأس من الانتقام، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب، وصار حزنًا. ولذلك يصفر اللون. وإن كان الغضب على نظير يشك فيه، تردد الدم بين انقباض وانبساط، فيحمر ويصفر ويضطرب.

وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب، ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام. وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها. والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها، وفيه لذتها، ولا تسكن إلا به.

ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة، من التفريط، والإفراط والاعتدال. أما التفريط، فبفقد هذه القوة أو ضعفها، وذلك مذموم. وهو الذي يقال فيه إنه لاحمية له ولذلك قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من استغضب فلم يغضب فهو حمار. فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلًا، فهو ناقص جدًا. وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي

ﷺ بالشدة والحمية، فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم:٩]، وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية، وهو الغضب. وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة، حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته، ولا يبقى للمرء منها بصيرة ونظر وفكرة، ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر. وسبب غلبته أمور غريزية، وأمور اعتيادية. فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب، حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب، لأن الغضب من النار.

وأما الأسباب الاعتيادية، فهو أن يخالط قومًا يتبجحون بتشفي الغيظ، وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية، فيقول الواحد منهم أنا الذي لا أصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمرا، ومعناه لا عقل فيّ ولا حلم. ثم يذكره في معرض الفخر بجهله فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب، وحُب التشبه بالقوم، فيقوى به الغضب. ومهما اشتدت نار الغضب، وقوي اضطرامها، أعمت صاحبها، وأصمته عن كل موعظة، فإذا وُعِظ لم يسمع، بل زاده ذلك غضبًا. وإذا استضاء بنور عقله، وراجع نفسه، لم يقدر. إذ ينطفئ نور العقل، وينمحي في الحال بدخان الغضب. ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ، يستولى على معادن الفكر وربما يتعدى إلى معادن الحس، فتظلم عينه، حتى لا يرى بعينه، وتسود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار، فاسود جوه، وحمى مستقره، وامتلأ بالدخان جوانبه، وكان فيه سراج ضعيف فانمحى، أو انطفأ نوره، فلا تثبت فيه قدم، ولا يسمع فيه كلام، ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج بل ربما يصبر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق. فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ. وربما تقوى نار الغضب، فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب، فيموت صاحبه غيظًا، كما تقوى النار في الكهف فينشق، وتنهد أعاليه على أسفله وذلك لإبطال

النار ما في جوانبه من القوة الممسكة، الجامعة لأجزائه. فهكذا حال القلب عند الغضب. وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج، عند اضطراب الرياح في لجة البحر، أحسن حالًا، وأرجى سلامة، من النفس المضطربة غيظًا. إذ في السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها، وينظر لها ويسوسها، وأما القلب فهو صاحب السفينة، وقد سقطت حيلته، إذا عماه الغضب وأصمه.

ومن آثار هذا الغضب في الظاهر، تغير اللون، وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام، واضطراب الحركة والكلام، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق، وتنقلب المناخر، وتستحيل الخلقة. ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته، لسكن غضبه حياء من قبح صورته، واستحالة خلقته وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن. وإنما قبحت صورة الباطن أولًا، ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيًا، فتغيرُ الظاهر ثمرة تغير الباطن، فقس الثمرة بالثمرة. فهذا أثره في الجسد.

وأما أثره في اللسان، فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام، الذي يستحيى منه ذو العقل، ويستحيى منه قائله عند فتور الغضب. وذلك مع تخبط النظم، واضطراب اللفظ.

وأما أثره على الأعضاء، فالضرب، والتهجم، والتمزيق، والقتل، والجرح عند التمكن من غير مبالاة. فإن هرب منه المغضوب عليه، أو فاته بسبب، وعجز عن التشفي، رجع الغضب على صاحبه، فمزق ثوب نفسه، ويلطم نفسه، وقد يضرب بيده على الأرض، ويعدو عدو الواله السكران، والمدهوش المتحير، وربما يسقط سريعًا، لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب، ويعتريه مثل الغشية، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلًا على الأرض، وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها،

ويتعاطى أفعال المجانين، فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها، ويقول إلى متى منك هذا يا كيت وكيت؟ كأنه يخاطب عاقلًا، حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة، ويقابلها بذلك.

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه، فالحقد، والحسد، وإضمار السوء، والشماتة بالمساآت، والحزن بالسرور، والعزم على إفشاء السر، وهتك الستر، والاستهزاء، وغير ذلك من القبائح. فهذه ثمرة الغضب المفرط. وأما ثمرة الحمية الضعيفة، فقلة الأنفة مما يؤنف منه، من التعرض للحرم، والزوجة، والأمة، واحتمال الذل من الأخساء، وصغر النفس، والقماءة، وهو أيضًا مذموم. إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم، وهو خنوثة قال ﷺ: «**إن سعدًا لغيور وأنا أغير من سعدٍ وإن الله أغير مني**» [متفقٌ عليه بنحوه]، وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب. ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب. ولذلك قيل كل أمة وُضعت الغيرة في رجالها، وضعت الصيانة في نسائها.

ومن ضعف الغضب الخور، والسكوت عند مشاهدة المنكرات، وقد قال تعالى: ﴿**وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ**﴾ [النور: ٢]، بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة.

ففقد الغضب مذموم، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفئ حيث يحسن الحلم. وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده. وهو الوسط الذي وصفه رسول الله ﷺ حيث قال: «**خير الأمور أوساطها**» [رواه البيهقي في الشعب مرسلًا]. فمن مال غضبه إلى الفتور، حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله. فينبغي أن يعالج نفسه، حتى يقوى غضبه. ومن مال غضبه إلى الإفراط، حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش، فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين، فهو الصراط المستقيم، وهو أرق من الشعرة، وأحد من

السيف. فإن عجز عنه، فليطلب القرب منه قال تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء:١٢٩]، فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله، ينبغي أن يأتي بالشر كله ولكن بعض الشر أهون من بعض، وبعض الخير أرفع من بعض.

فهذه حقيقة الغضب ودرجاته، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه، إنه على ما يشاء قدير.

بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا:

اعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد. وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج، وهذا رأى من يظن أن الخُلُق كالخَلْق وكلاهما لا يقبل التغيير. وكلا الرأيين ضعيف. بل الحق فيه ما نذكره، وهو أنه مهما بقي الإنسان يحب شيئًا ويكره شيئًا، فلا يخلو من الغيظ والغضب. وما دام يوافقه شيء، ويخالفه آخر، فلابد من أن يحب ما يوافقه، ويكره ما يخالفه، والغضب يتبع ذلك. فإنه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة، وإذا قصد بمكروه غضب لا محالة. إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول- ما هو ضرورة في حق الكافة، كالقوت، والمسكن، والملبس، وصحة البدن فمن قصد بدنه بالضرب والجرح، فلابد وأن يغضب. وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته، وكذلك إذا أخرج من داره التي هي مسكنه، أو أريق ماؤه الذي لعطشه، فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها، ومن غيظٍ على من يتعرض لها.

القسم الثاني- ما ليس ضروريًا لأحد من الخلق، كالجاه، والمال الكثير، والغلمان والدواب. فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة، والجهل بمقاصد الأمور، حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيكنزان، ويغضب على من يسرقهما، وإن كان مستغنيًا عنهما في القوت. فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه.

فـإذا كانـت له دار زائـدة على مسـكنه، فهدمها ظالم، فيجـوز أن لا يغضـب. إذ يجوز أن يكون بصيرًا بأمر الدنيا، فيزهد في الزيادة على الحاجة، فلا يغضب بأخذها، فإنه لا يحب وجودهـا ولو أحب وجودهـا لغضب على الضرورة بأخذها، وأكثـر غضب الناس على مـا هو غير ضروري، كالجاه، والصيت، والتصدر في المجالـس، والمباهاة في العلم. فمن غلب هذا الحب عليه، فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر في المحافل. ومن لا يحـب ذلك فلا يبالي ولـو جلس في صف النعال، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه. وهذه العادات الرديئة هي التي أكثرت محاب الإنسـان ومكارهه، فأكثرت غضبه. وكلما كانت الإرادات والشـهوات أكثـر، كان صاحبها أحط رتبة وأنقـص. لأن الحاجة صفة نقص. فمهـما كثـرت كثر النقص. والجاهل أبدا جهده في أن يزيد في حاجاته وفي شـهواته، وهو لا يدري أنه مسـتكثر من من أسـباب الغم والحزن، حتى ينتهي بعض الجهال بالعادات الرديئـه، ومخالطـة قرناء السـوء، إلى أن يغضب لو قيل له إنك لا تحسـن اللعب بالطيور، واللعب بالشـطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير، وتناول الطعام الكثير، وما يجري مجراه من الرذائل. فالغضب على هذا الجنس ليس بضروري، لأن حبه ليس بضروري.

القسـم الثالـث- ما يكـون ضروريًا في حق بعض النـاس دون البعض. كالكتاب مثـلًا في حـق العـالم، لأنه مضطر إليـه فيحبه، فيغضب عـلى من يحرقـه ويغرقه. وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسـب، الذي لا يمكنه التوصل إلى القوات إلا بها. فإن ما هو وسـيلة إلى الضروري والمحبوب يصير ضروريًا ومحبوبًا. وهذا يختلف بالأشـخاص. وإنما الحب الضروري ما أشـار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «**من أصبح آمنًا في سر بـه مُعـافىً في بدنه وعنده قـوت يومه فكأنما حيزت لـه الدنيا بحذافيرهـا**» [رواه الترمذي وصححه الألباني] ومن كان بصيرًا بحقائق الأمور، وسـلم له هذه الثلاثة، يتصور أن لا يغضب في غيرها.

فهذه ثلاثة أقسام، فلنذكر غاية الرياضة في كل واحد منها:

أما القسم الأول- فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب، ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب، ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع، ويستحسنه العقل. وذلك ممكن بالمجاهدة، وتكلف الحلم والاحتمال مدة، حتى يصير الحلم والاحتمال خلقًا راسخًا. فأما قمع أصل الغيظ من القلب، فذلك ليس مقتضى الطبع، وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه، حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن. وينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه. ولكن ذلك شديد جدًا. وهذا حكم القسم الثالث أيضًا لأن ما صار ضروريًا في حق شخص، فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه. فالرياضة فيه تمنع العمل به، وتضعف هيجانه في الباطن، حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه.

وأما القسم الثاني- فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه، إذ يمكن إخراج حبه من القلب. وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر، ومستقره الآخرة، وأن الدنيا معبر يعبر عليها، ويتزود منها قدر الضرورة، وما وارء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره فيزهد في الدنيا، ويمحو حبها عن قلبه. ولو كان للإنسان كلب لا يحبه. لا يغضب إذا ضربه غيره. فالغضب تبع للحب. فالرياضة في هذا قد تنتهي إلى قمع أصل الغضب، وهو نادر جدًا وقد تنتهي إلى المنع من استعمال الغضب، والعمل بموجبه، وهو أهون. فإن قلت: الضروري من القسم الأول يمكن التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب. فمن له شاة مثلًا وهي قوته، فماتت، لا يغضب على أحد، وإن كان يحصل فيه كراهة. وليس من ضرورة كل كراهة غضب، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة، ولا يغضب على الفصاد والحجام. فمن غلب عليه الإيمان، يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه. فلا يغضب على أحد من خلقه، إذ يراهم مسخرين في قبضة قدرته، كمن وقّع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم إلا من جهة معصيته لله لا لنفسه. فلا يغضب على من يذبح شاته التي هي قوته، كما لا يغضب على موتها، إذ يرى الذبح والموت من الله عَزَّوَجَلَّ، فيندفع

الغضب بغلبة ذلك عليه، ويندفع أيضًا بحسن الظن بالله، وهو أن يرى أن الكل من الله، وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخيرة وربما تكون الخيرة في مرضه، وجوعه، وجرحه وقتله، فلا يغضب، كما لا يغضب على الفصاد والحجام، لأنه يرى أن الخيرة فيه؟ فنقول هذا على هـذا الوجه غير محال ولكن غلبة الإيمان إلى هذا الحد، إنما تكون كالبرق الخاطف، تغلب في أحوال مختطفة ولا تدوم، ويرجع القلب إلى الالتفاف إلى الوسـائط، رجوعًا طبيعيًا لا يندفع عنه. ولو تصور ذلك على الدوام لبشر، لتصور لرسـول الله ﷺ فإنه كان يغضب حتى قال: «**اللهم إنّما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيّما مسلم سببته أو لعنته أو ضربته فاجعلها مني صلاة عليه وزكاة وقر به تقربه بها إليك يوم القيامة**» [متفقٌ عليه] وقـال عبـد الله بن عمرو بن العاص، يا رسـول الله، أكتب عنـك كل ما قلت في الغضب والرضا؟ فقال: «**اكتب فوالذي بعثني بالحق نبيًا ما يخرج منه إلا حق**» وأشـار إلى لسـانه [رواه أبي دواد وصححـه الألبـاني]. فلـم يقل إني لا أغضب. ولكن قـال إن الغضب لا يخرجني عن الحق، أي لا أعمل بموجب الغضب. وغضبت عائشـة رضي الله عنها مرة، فقال لها رسـول الله ﷺ: «**مالك جاءك شـيطانك**» فقالت ومالك شيطان؟ قال: «**بلى ولكنـي دعوت الله فأعانني عليه فأسـلم فـلا يأمرني إلا بالخير**» [رواه مسـلم] ولم يقل لا شيطان لي وأراد شيطان الغضب، لكن قال لا يحملني على الشر.

بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته، التي لابد له في دينه منها، فإنـما يغضب لله، فلا يمكن الانفكاك عنه. نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري، إذا كان القلب مشغولًا بضروري أهم منه، فلا يكون في القلب متسع للغضب، لاشتغاله بغيره، فإنّ استغراق القلب ببعض المهمات، يمنع الاحساس بما عداه، وهذا كما أن سلمان لما شُـتم قال، إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول؛ فقـد كان همه مصروفًا إلى الآخرة، فلم يتأثر قلبه بالشـتم. وكذلك شُـتم الربيع بن خثيم فقال: يا هذا، قد سـمع الله كلامـك، وإن دون الجنة عقبة، إن قطعتها لم يضرني ما تقول،

وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول. وسب رجل أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال ما ستر الله عنك أكثر. فكأنه كان مشغولًا بالنظر في تقصير نفسه عن أن يتقي الله حق تقاته، ويعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان، إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان. وذلك لجلالة قدره. وقالت امرأة لمالك بن دينار: يا مرائي. فقال: ما عرفني غيرك. فكأنه كان مشغولًا بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء، ومنكرًا على نفسه ما يلقيه الشيطان إليه، فلم يغضب لما نسب إليه. وسب رجل الشعبي فقال: إن كنت صادقًا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك.

فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا، لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم. ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم، ولكنهم لم يشتغلوا به، واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم. فإذًا اشتغال القلب ببعض المهمات، لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب. فإذًا يتصور فقد الغيظ. إما باشتغال القلب بمهم، أو بغلبة نظر الإيمان، أو بسبب ثالث، وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يغتاظ، فيطفئ شدة حبه لله غيظه، وذلك غير محال في أحوال نادرة. وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب، وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها، كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا. ومن أخرج حب الدنيا عن القلب، تخلص من أكثر أسباب الغضب وما لا يمكن محوه، يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه، ويهون دفعه. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه، إنه على كل شيء قدير، والحمد لله وحده.

بيان الأسباب المهيجة للغضب:

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها، وإزالة أسبابها. فلابد من معرفة أسباب الغضب وقد قال يحيى لعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله. قال: فما يقرب من غضب الله؟ قال: أن تغضب، قال: فما يبدي الغضب وما ينبته؟ قال عيسى: الكبر، والفخر، والتعزز، والحمية.

والأسباب المهيجة للغضب هي: الزهو، والعجب، والمزاح، والهزل، والهزء والتعيير والمباراة، والمضادة، والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعًا، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلابد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها. فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك، كما سيأتي بيانه في كتاب الكبر والعجب، وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد، وإنما اختلفوا في الفضل اشتاتًا، فبنوا آدم جنس واحد، وإنما الفخر بالفضائل، والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل، وهي أصلها ورأسها فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك. فلِمَ تفتخر وأنت من جنس عبدك، من حيث البنية والنسب، والأعضاء الظاهرة والباطنة.

وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك. وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة، والعلوم الدينية، التي تبلغك إلى سعادة الآخرة. وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس، وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك. وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح، وصيانة النفس عن مر الجواب وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة، طلبا لعز الاستغناء، وترفعا عن ذل الحاجة. وكل خلق من هذه الأخلاق، وصفة من هذه الصفات، يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة. وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها، لترغب النفس عنها، وتنفر عن قبحها. ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة، حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس. فإذا انمحت عن النفس، فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل، وتخلصت أيضًا عن الغضب الذي يتولد منها. ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال، تسميتهم الغضب شجاعة، ورجولية، وعزة نفس، وكبرهمة، وتلقيبه بالألقاب المحمودة، غباوة وجهلًا، حتى تميل النفس إليه وتستحسنه. وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر، في معرض المدح بالشجاعة. والنفوس مائلة إلى التشبه

بالأكابر فيهيج الغضب إلى القلب بسببه. وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل، بل هو مرض قلب، ونقصان عقل، وهو لضعف النفس ونقصانها. وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبًا من الصحيح، والمرأة أسرع غضبًا من الرجل، والصبي أسرع غضبًا من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضبًا من الكهل، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضبًا من صاحب الفضائل. فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولبخله إذا فاتته الحبة، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه. بل القوي من يملك نفسه عند الغضب، كما قال رسول الله ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**» بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تُتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو، وما استحسن منهم من كظم الغيظ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء، والحكماء والعلماء، وأكابر الملوك الفضلاء وضد ذلك منقول عن الجهلة والأغبياء، الذين لا عقول لهم، ولا فضل فيهم.

بيان علاج الغضب بعد هيجانه:

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب؛ وقطع لأسبابه حتى لا يهيج. فإذا جرى سبب هيّجه فعنده يجب التثبت، حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم. وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل. أما العلم فهو ستة أمور:

الأول- أن يتفكر في الأخبار التي سنوردها، في فضل كظم الغيظ، والعفو، والحلم، والاحتمال، فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام وينطفئ عنه غيظه. قال مالك بن أوس بن الحدثان، غضب عمر على رجل وهمَّ بضربه فقلت: يا أمير المؤمنين ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فكان عمر يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فكان يتأمل في الآية، وكان وقافًا عند كتاب الله مهما تلي عليه، كثير التدبر فيه، فتدبر فيه، وخلّى الرجل. وأمر عمر بن

عبد العزيز بضرب رجل، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فقال لغلامه خلِّ عنه.

الثاني- أن يخوف نفسه بعقاب الله، وهو أن يقول قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه، لم آمن أن يمضي الله غضبه على يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو، فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة، يا ابن آدم، اذكرني حين تغضب، أذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق. وقيل ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها ارحم المسكين، واخش الموت، واذكر الآخرة، فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه.

الثالث- أن يحذِّر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وتشمر العدو لمقابلته، والسعي في هدم أغراضه، والشماتة بمصائبه، وهو لا يخلو عن المصائب، فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا، إن كان لا يخاف من الآخرة وليس هذا من أعمال الآخرة، ولا ثواب عليه، لأنه ثواب عليه، لأنه متردد عل حظوظه العاجلة، يقدم بعضها على بعض، إلا أن أن يكون محذوره أن تتشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل، وما يعينه على الآخرة، فيكون مثابًا عليه.

الرابع- أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ويتفكر في قبح الغضب في نفسه، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري، والسبع العادي، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب، للأنبياء والأولياء، والعلماء والحكماء، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس، وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء، إن كان قد بقي معه مسكة من عقل.

الخامس- أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، ويمنعه من كظم الغيظ ولابد وأن يكون له سبب. مثل قولة الشيطان له، إن هذا يحمل منك على العجز، وصغر النفس والذلة والمهانة، وتصير حقيرًا في أعين الناس. فيقول لنفسه: ما أعجبك! تأنفين

من الاحتمال الآن، ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح، إذا أخذ هذا بيدك وانتقم لنفسه! وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين! فمهما كظم الغيظ. فينبغي أن يكظمه لله، وذلك يعظمه عند الله، فماله وللناس، وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن. أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة ليقم من أجره على الله. فلا يقوم إلا من عفا. فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يقرره على قلبه.

السادس- أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله، لا على وفق مراده. فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه.

وأما العمل، فبأن تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يقال عند الغيظ [متفق عليه].

فإن لم يزل بذلك، فاجلس إن كنت قائمًا، واضطجع إن كنت جالسًا، واقترب من الأرض التي منها خلقت، لتعرف بذلك ذل نفسك. واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون، فإن سبب الغضب الحرارة، وسبب الحرارة الحركة. فقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الغضب جمرة تُوقد في القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه؟ فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئًا فإن كان قائمًا فليجلس وإن كان جالسًا فلينم**» [رواه الترمذي دون قوله «**توقد**» ورواه البيهقي في الشعب بهذه الألفاظ. [وضعفه الألباني].

فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل، فإن النار لا يطفئها إلا الماء فقد قال ﷺ: «**إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار**» [رواه أبو داود وضعفه الألباني]، وفي رواية: «**إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**» [وضعفه الألباني] وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «**إذا غضبت فاسكت**» [رواه أحمد والطبراني وصححه

الألباني]، وأمر رسول الله ﷺ من غضب وهو قائم أن يجلس، ومن غضب وهو جالس أن يضطجع [رواه أحمد]. وقال أبو سعيد الخدري، قال النبي ﷺ: «**ألا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئًا فليلصق خده بالأرض**» [رواه الترمذي وضعفه الألباني] وكأنَّ هذا إشارة إلى السجود، وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذل، وتزايل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب.

وروي أن عمر غضب يومًا؛ فدعا بماء فاستنشق وقال: إن الغضب من الشيطان، وهذا يذهب الغضب. وقال عروة بن محمد، لما استعملت على اليمن، قال لي أبي: أوليت؟ قلت: نعم. قال: فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك، وإلى الأرض تحتك، ثم عظم خالقهما. ورُوي أن أبا ذر قال لرجل: يا ابن الحمراء، في خصومة بينهما. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**يا أبا ذر بلغني أنك اليوم عيرت أخاك بأمه**» فقال: نعم. فانطلق أبو ذر ليرضي صاحبه، فسبقه الرجل فسلم عليه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل**» ثم قال: «**إذا غضبت فإن كنت قائمًا فاقعد وإن كنت قاعدًا فاتكئ وإن مُتكئًا فاضطجع**» [رواه ابن أبي الدنيا قال العراقي: بإسنادٍ صحيح].

وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم، يغضب فيشتد غضبه. فكتب ثلاث صحائف، وأعطى كل صحيفة رجلًا. وقال للأول. إذا غضبت فأعطني هذه. وقال للثاني إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه. وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فأعطني هذه. فاشتد غضبه يومًا، فأُعطي الصحيفة الأولى، فإذا فيها: ما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضًا. فسكن بعض غضبه، فأعطي الثانية، فإذا فيها، ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. فأعطي الثالثة، فإذا فيها:

خذ الناس بحق الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذلك. أي لا تعطل الحدود. وغضب المهدي على رجل، فقال شبيب: لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه، فقال خلوا سبيله.

فضيلة كظم الغيظ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وذكر ذلك في معرض المدح وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «**ما جرع عبد جرعة أعظم أجرًا من جرعة غيظٍ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى**» [رواه ابن ماجه ووصححه الألباني موقوفًا على ابن عمر]، وقال ﷺ: «**من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق ويُخيره من أي الحور شاء**» [الصحيحة: ٩٠٦].

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: من اتقى الله لم يشفِ غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. وقال لقمان لابنه: يا بني، لا تذهب ماء وجهك بالمسألة، ولا تشف غيظك بفضيحتك، واعرف قدرك تنفعك معيشتك. وقال أيوب: حلم ساعة يدفع شرًا كثير، واجتمع سفيان الثوري، وأبو خزيمة اليربوعي، والفضيل ابن عياض، فتذاكروا الزهد، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب، والصبر عند الجزع. وقال رجل لعمر رضي الله عنه: والله ما تقضي بالعدل، ولا تعطي الجزل. فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، ألا تسمع أن الله تعالى يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فهذا من الجاهلين. فقال عمر: صدقت. فكأنّما كانت نارًا فأطفئت. وقال محمد بن كعب، ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله، إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له. وجاء رجل إلى سلمان فقال: يا عبد الله أوصني. قال: لا تغضب، قال: لا أقدر. قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك.

بيان فضيلة الحلم:

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم، أي تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة. ولكن إذا تعود ذلك، مدة صار ذلك اعتيادًا فلا يهيج الغيظ. وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفًا. قال ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحرَّ الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه**» [الصحيحة:٣٤٢] وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولًا وتكلفه، كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم.

قال النبي ﷺ: «**إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وإنه ليكتب جبارًا عنيدًا ولا يملك إلا أهل بيته**» [رواه الطبراني بسندٍ ضعيف ولكن صحّ إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم] وقال أبو هريرة: إن رجلًا قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، ويجهلون عليّ وأحلم عنهم. قال: «**إن كان كما تقول فكأنما تسفهم الملّ ولا يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك**» [رواه مسلم] والملّ يعني به الرمل.

وقال ﷺ: «**أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟**» قالوا: وما أبو ضمضم؟ قال: «**رجل ممن كان قبلكم كان إذا اصبح يقول اللهم إني تصدقت اليوم بعرضي على من ظلمني**» [سنده ضعيف ولكن معناه حسن] وقيل في قوله تعالى: ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩]، أي حلماء علماء.

وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]، قال حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا. وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، أي حلمًا. وقال ابن أبي حبيب في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَهْلًا﴾ [آل عمران:٤٦]،

قال: الكهل منتهى الحلم. وقال مجاهد: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي إذا أوذوا صفحوا، وقال ﷺ: «**ليليني منكم أولوا الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم ولا تختلفوا فتخلف قلوبكم وإياكم وهيشات الأسواق**» [رواه مسلم]. وروي أنه وفد على النبي ﷺ الأشج، فأناخ راحلته ثم عقلها، وطرح عنه ثوبين كانا عليه، وأحرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما، وذلك بعين رسول الله ﷺ يرى ما يصنع، ثم أقبل يمشي إلى رسول الله ﷺ، فقال عليه السلام: «**إن فيك يا أشج خُلقين يحبهما الله ورسوله**» قال: ما هما بأبي وأمي يا رسول الله؟ قال: «**الحلم والأناة**» فقال: خلتان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما؟ فقال: «**بل خُلقان جبلك الله عليهما**» فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله [متفقٌ عليه].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعًا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم إنا نراكم سراعًا إلى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون لهم ما كان فضلكم؟ فيقولون كنا إذا ظُلمنا صبرنا وإذا أُسِيءَ إلينا عفونا وإذا جُهل علينا حلُمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين**» [رواه البيهقي في شعب الإيمان وقال في سنده ضعف].

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم. وقال علي رضي الله عنه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى، وقال الحسن: اطلبوا العلم، وزينوه بالوقار والحلم. وقال أكثم بن صيفي: دعامة العقل الحلم، وجماع الأمر الصبر. وقال أبو الدرداء: أدركت الناس ورقا لاشوك فيه، فأصبحوا شوكًا ورق فيه، إن عرفتهم نقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك. قالوا: كيف نصنع؟ قال: تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك. وقال علي رضي الله عنه: إن أول ما عُوِّض الحليم من حلمه، أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل. وقال معاوية رحمه الله: لا يبلغ العبد

مبلغ الرأى، حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته. ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم. وقال معاوية لعمر بن الأهتم: أي الرجال أشجع؟ قال: من ردَّ جهله بحلمه. قال: أيُّ الرجال أسخى؟ قال: من بذل دنياه لصلاح دينه. وقال أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٤]، إلى قوله: ﴿عَظِيمٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٥]، هو الرجل يشتمه أخوه، فيقول: إن كنت كاذبًا فغفر الله لك، وإن كنت صادقًا فغفر الله لي. وقال بعضهم: شتمت فلانًا من أهل البصرة، فحلم عليّ، فاستعبدني بها زمانًا. وقال معاوية لعرابة بن أوس: بم سدت قومك يا عرابة؟ قال يا أمير المؤمنين، كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم. فمن فعل فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه. وسب رجل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فلما فرغ، قال: يا عكرمة، هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحيى، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: أشهد أنك من الفاسقين. فقال: ليس تقبل شهادتك.

وعن علي بن الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أنه سبه رجل، فرمى إليه بخميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم. فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة، الحلم، وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عَزَّوَجَلَّ، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذم. واشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير. وقال رجل لجعفر بن محمد، إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر، وإني أريد أن أتركه، فأخشى أن يقال لي إن تركك له ذل. فقال جعفر: إنما الذليل الظالم. وقال الخليل بن أحمد: كان يقال من أساء فأُحسِن إليه، فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته. وقال الأحنف بن قيس: لست بحليم، ولكنني أتحلم. وقال وهب بن منبه: من يرحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يجهل يُغلب، ومن يعجل يخطئ، ومن يحرص على الشر لا يسلم، ومن لا يدع المراء يشتم، ومن لا يكره الشر يأثم، ومن يكره الشر يُعصم ومن يتبع وصية الله يُحفظ ومن يحذر الله يأمن، ومن يتول الله يُمنع، ومن لا يسأل الله يفتقر، ومن يأمن مكر

الله يُخذَل ومن يستعن بالله يظفر. وقال رجل لمالك بن دينار: بلغني أنك ذكرتني بسوء قال أنت إذًا أكرم عليّ من نفسي. إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي. وقال بعض العلماء: الحلم أرفع من العقل، لأن الله تعالى تسمَّى به. وقال رجل لبعض الحكماء: والله لأسبنك سبًا يدخل معك في قبرك، فقال: معك يدخل لامعي. ومرَّ المسيح بن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود، فقالوا له شرًا، فقال لهم خيرًا. فقيل له إنهم يقولون شرًا، وأنت تقول خيرًا فقال: كلٌّ ينفق مما عنده. وقال لقمان: ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة، لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه.

ودخل على بعض الحكماء صديق له، فقدم إليه طعامًا، فخرجت امرأة الحكيم، وكانت سيئة الخلق، فرفعت المائدة، وأقبلت على شتم الحكيم. فخرج الصديق مغضبًا. فتبعه الحكيم وقال له، تذكر يوم كنا في منزلك نطعم، فسقطت دجاجة على المائدة، فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا. قال: نعم. قال: فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة. فسُرِّي عن الرجل غضبه وانصرف، وقال: صدق الحكيم، الحلم شفاء من كل ألم. وضرب رجلٌ قدم حكيم فأوجعه، فلم يغضب. فقيل له في ذلك. فقال أقمته مقام حجر تعثرت له. فذبحت الغضب. وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفيح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه عليَّ الجرائم

وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم

فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذي دوني فإن قال صنتُ عن ... إجابته عرضي وإن لام لائم

وأما الذي مثلي فإن زل أوهفا ... تفضلتُ إن الفضل بالحلم حاكم

بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام:

اعلم أن كل ما صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله. فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس، ولا السب بالسب، وكذلك سائر المعاصي. وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به، وقد فصلناه في الفقه. وأما السب فلا يقابل بمثله، إذ قال رسول الله ﷺ: «**إن امرؤ عيَّرك بما فيك فلا تُعيره بما فيه**» [رواه أحمد]، وقال: «**المستبان ما قالا فهو على البادئ ما لم يعتد المظلوم**» [رواه مسلم]، وشتم رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه، قام رسول الله ﷺ. فقال أبو بكر: إنك كنت ساكتًا لما شتمني فلما تكلمت قمت؟ قال: «**لأن الملك كان يُجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان**» [رواه أبو داود وحسنه الألباني].

وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه، وإنما نهى رسول الله ﷺ عن مقابلة التعيير بمثله نهي تنزيه، والأفضل تركه، ولكنه لا يعصي به. والذي يرخص فيه، أن تقول من أنت؟ وهل أنت إلا من بني فلان؟ كما قال سعد لابن مسعود، وهل أنت إلا من بني هذيل؟ وقال ابن مسعود: وهل أنت إلا من بني أمية؟ [قلتُ: إن صحّ ذلك] ومثل قوله يا أحمق. قال مطرف: كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه، إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض وقال ابن عمر في حديث طويل، حتى ترى الناس كلهم حمقى في ذات الله تعالى.

وكذلك قوله: يا جاهل، إذ ما من أحد إلا وفيه جهل، فقد آذاه بما ليس بكذب.

وكذلك قوله ياسيئ الخلق، يا صفيق الوجه، يا ثلابا للأعراض، وكان ذلك فيه.

وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت، وما أحقرك في عيني بما فعلت، وأخزاك الله وانتقم منك. فأما النميمة، والغيبة، والكذب، وسب الوالدين، فحرام بالاتفاق لما روى أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام، فذكر رجل خالدًا عند سعد، فقال سعد

مَهْ، إن ما بيننا لم يبلغ ديننا. يعني أن يأثم بعضنا في بعض. فلم يسمع السوء، فكيف يجوز له أن يقوله. والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام، كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب، ما روت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسلن إليه فاطمة، فجاءت فقالت: يا رسول الله، أرسلني إليك أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نائم، فقال: «**يا بنية أتُحبين ما أحب؟**» قالت: نعم. قال: «**فأحبي هذه**» فرجعت إليهن، فأخبرتهن بذلك، فقلن: ما أغنيت عنا شيئًا. فأرسلن زينب بنت جحش، قالت: وهي التي كانت تساميني في الحب، فجاءت فقالت بنت أبي بكر، وبنت أبي بكر، فما زالت تذكرني وأنا ساكتة، أنتظر أن يأذن لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجواب، فأذن لي. فسبتها حتى جف لسانها. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**كلا إنها ابنة أبي بكر**» [رواه مسلم]، يعني أنك لاتقاومينها في الكلام قط. وقولها سبتها ليس المراد به الفحش، بل هو الجواب عن كلامها بالحق، ومقابلتها بالصدق.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم**» فأثبت للمظلوم انتصارًا إلى أن يعتدى. فهذا القدر هو الذي أباحه هؤلاء، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق، ولا تبعد الرخصة في هذا القدر، ولكن الأفضل تركه، فإنه يجره إلى ما وراءه [قلت: وهذا القول أصح]، ولا يمكنه الانتصار على قدر الحق فيه. والسكوت عن أصل الجواب، لعله أيسر من الشروع في الجواب، والوقوف على حد الشرع فيه. ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب، ولكن يعود سريعًا، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام.

والناس في الغضب أربعة، فبعضهم كالحلفاء، سريع الوقود سريع الخمود. وبعضهم كالغضا، بطيء الوقود بطيء الخمود، وهذا هو بطيء الوقود سريع الخمود، وهو الأحمد، ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة. وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود، وهذا هو شرهم. وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استُرضي

فلم يرض فهو شيطان. وقد قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أن بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم بطيء الغضب سريع الفيء ومنهم سريع الغضب سريع الفيء فتلك بتلك ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء**» [رواه الترمذي وضعفه الألباني].

ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان، وجب على السلطان أن لا يعاقب أحدًا في حال غضبه، لأنه ربما يتعدى الواجب، ولأنه ربما يكون متغيظًا عليه، فيكون متشفيًا لغيظه، ومريحًا نفسه من ألم الغيظ. فيكون صاحب حظ. فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه. ورأى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سكران: فأراد أن يأخذه ويعزره، فشتمه السكران. فرجع عمر. فقيل له: يا أمير المؤمنين، لما شتمك تركته؟ قال لأنه أغضبني ولو عزرته لكان ذلك لغضبي لنفسي، ولم أحب ان أضرب مسلمًا حمية لنفسي [يعني أنه سيقيم عليه الحد بعد أن يزول غضبه]. وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ لرجل أغضبه: لولا أنك أغضبتني لعاقبتك.

القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق:

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجزٍ عن التشفي في الحال، رجع إلى الباطن واحتقن فيه، فصار حقدًا. ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله، والبغضة له، والنفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى فالحقد ثمرة الغضب والحقد يثمر ثمانية أمور:

الأول- الحسد، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمة إن أصابها، وتسر بمصيبة إن نزلت به. وهذا من فعل المنافقين، وسيأتي ذمه إن شاء الله تعالى. **الثاني**- أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث- أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه؛ وإن طلبك وأقبل عليك.

الرابع- وهو دونه، أن تعرض عنه استصغارًا له.

الخامس- أن تتكلم فيه بما لا يحل، من كذب، وغيبة، وإفشاء سر، وهتك ستر، وغيره. **السادس**- أن تحاكيه استهزاء به، وسخرية منه. **السابع**- إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه. **الثامن**- أن تمنعه حقه من قضاء دين، أو صلة رحم، أو ردّ مظلمة، وكل ذلك حرام. وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة، ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصي الله به، ولكن تستثقله في الباطن، ولا تنهى قلبك عن بغضه، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة، والرفق، والعناية، والقيام بحاجاته، والمجالسة معه على ذكر الله تعالى، والمعاونة على المنفعة له. أو بترك الدعاء له، والثناء عليه، أو التحريض على بره ومواساته. فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين، ويحول بينك وبين فضل عظيم، وثواب جزيل. وإن كان لا يعرضك لعقاب الله. ولما حلف أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن لا ينفق على مسطح، وكان قريبه، لكونه تكلم في واقعة الإفك، نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، فقال أبو بكر نعم نحب ذلك. وعاد إلى الإنفاق عليه. والأولى أن يبقى على ما كان عليه، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس، وارغامًا للشيطان، فذلك مقام الصديقين، وهو من فضائل أعمال المقربين. فللمحقود عليه ثلاثة أحوال عند القدرة:

أحدهما- أن يستوفى منه المظلوم حقه الذي يستحقه، من غير زيادة ونقصان وهو العدل.

الثاني- أن يحسن إليه بالعفو والصلة، وذلك هو الفضل.

الثالث- أن يظلمه بما لا يستحقه، وذلك هو الجور، وهو اختيار الأراذل، والثاني هو اختيار الصديقين، والأول هو منتهى درجات الصالحين، ولنذكر الآن فضيلة العفو والإحسان.

فضيلة العفو والإحسان:

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقًا، فيسقطه ويبرئ عنه، من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيظ فلذلك أفردناه، قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٩]، وقال الله تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]

وقال رسول الله ﷺ: «**ثلاث والذي نفسي بيده لو كنت حالفًا لحلفت عليهن ما نقص مال من صدقة فتصدقوا ولا عفا رجل عن مظلمةٍ يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزًا يوم القيامة ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقرٍ**» [رواه مسلم بنحوه]. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرًا من مظلمة ظلمها قط، ما لم ينتهك من محارم الله شيء. فإذا انتهك من محارم الله شيء، كان أشدهم في ذلك غضبًا. وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرها، ما لم يكن إثمًا [رواه مسلم بنحوه]. وقال عقبة: لقيت رسول الله ﷺ يومًا، فابتدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي. فقال: «**يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة: تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك**» [رواه الطبراني قال العراقي بسندٍ فيه ضعف]. قال موسى عليه السلام: يا رب أي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر عفا. وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس، قال الذي يعفو إذا قدر، فاعفوا يعزكم الله.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، طاف بالبيت، وصلى ركعتين، ثم أتى الكعبة، فأخذ بعضّادتي الباب فقال: «**ما تقولون وما تظنون؟**» فقالوا: نقول أخ وابن عم، حليم رحيم. قالوا: ذلك ثلاثًا فقال ﷺ: «**أقول كما قال يوسف** ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢] **قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام**» [رواه ابن أبي الدنيا ولكن بسندٍ ضعفه العراقي]. وعن سهيل بن عمرو قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة، وضع يديه على باب الكعبة، والناس حوله فقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده**

ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «**يا معشر قريش ما تقولون وما تظنون؟**» قال: قلت: يا رسول الله، نقول خيرًا ونظن خيرًا أخ كريم وابن عم رحيم، وقد قدرت. فقال رسول الله ﷺ: «**أقول كما قال أخي يوسف** ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]».

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا وقف العباد نادى منادٍ ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة**» قيل ومن ذا الذي له أجر؟ قال: «**العافُون عن الناس فيقوم كذا وكذا ألفًا فيدخلونها بغير حساب**» [رواه الطبراني ولكن في سنده ضعف].

الآثار: قال إبراهيم التيمي: إن الرجل ليظلمني فأرحمه. وهذا إحسان وراء العفو، لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم، وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب. وقال بعضهم: إذا أراد الله أن يتحف عبدًا، قيض له من يظلمه. ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، فجعل يشكو إليه رجلًا ظلمه، ويقع فيه. فقال له عمر إنك إن تلقى الله ومظلمتك كما هي، خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها. وقال يزيد بن ميسرة إن ظلمت تدعو على من ظلمك، فإن الله تعالى يقول: إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك، وإن شئت أخر تكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى. وقال مسلم بن يسار: لرجل دعا على ظالمه: كِلْ الظالم إلى ظلمه، فإنه أسرع إليه من دعائك عليه، إلا أن يتداركه بعمل، وقمن أن لا يفعل. وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال: بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديًا يوم القيامة، فينادي من كان له عند الله شيء فليقم، فيقوم أهل العفو، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس. وعن هشام بن محمد قال: أُتي النعمان بن المنذر برجلين، قد أذنب أحدهما ذنبًا عظيمًا، فعفا عنه، والآخر أذنب ذنبًا خفيفًا، فعاقبه وقال:

تعفو الملوك عن العظيم ... من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير ... وليس ذاك لجهلها
إلا ليُعْرَف حلمها ... ويُخاف شدة دخلها

obeikandl.com

وعن مبارك بن فضالة قال: وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر. قال: فكنت عنده، إذ أُتي برجل فأمر بقتله. فقلت: يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر. فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا أحدثك حديثًا سمعته من الحسن، قال: وما هو؟ قلت: سمعته يقول: إذا كان يوم القيامة، جمع الله عَزَّوَجَلَّ الناس في صعيد واحد، حيث يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر. فيقوم مناد فينادي، من له عند الله يد فليقم. فلا يقوم إلا من عفا. فقال: والله لقد سمعته من الحسن؟ فقلت: والله لسمعته منه. فقال: خلينا عنه.

وقال معاوية: عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة. فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال. ورُوي أن راهبًا دخل على هشام بن عبد الملك. فقال للراهب: أرأيت ذا القرنين، أكان نبيًا؟ فقال: لا. ولكنه إنما أُعطي ما أُعطي بأربع خصال كن فيه. كان إذا قدر عفا، وإذا وعد وفي، وإذا حدث صدق، ولا يجمع شغل اليوم لغد. وقال بعضهم: ليس الحليم من ظُلم فحلم، حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من ظُلم فحلم، حتى إذا قدر عفا.

وقال زياد: القدرة تذهب الحفيظة، يعني الحقد والغضب. وأُتي هشام برجل بلغه عنه أمر، فلما أقيم بين يديه، جعل يتكلم بحجته. فقال له هشام: وتتكلم أيضًا؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، أفنجادل الله تعالى ولا نتكلم بين يديك كلامًا؟ قال هشام: بلى ويحك تكلم.

ورُوي أن سارقًا قد دخل خباء عمار بن ياسر بصفين، فقيل له اقطعه فإنه من أعدائنا. فقال بل أستر عليه، لعل الله يستر عليّ يوم القيامة. وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعامًا، فابتاع، ثم طلب الدراهم، وكانت في عمامته، فوجدها قد حلت: فقال: لقد جلست وإنها لمعي. فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون، اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها، اللهم افعل به كذا فقال عبد الله: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة

فبارك له فيها. وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه. وقال الفضيل: ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان، جلس إليّ في المسجد الحرام، ثم قام ليطوف، فسرقت دنانير كانت معه، فجعل يبكي فقلت أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا، ولكن مثلتني وإياه بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، فأشرف عقلي على إدحاض حجته فبكائي رحمة له. وقال مالك بن دينار، أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلًا. وهو على البصرة أمير وجاء الحسن وهو خائف. فدخلنا معه عليه. فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج فذكر الحسن قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما صنع به إخوته من بيعهم إياه، وطرحهم له في الجب. فقال: باعوا أخاهم، وأحزنوا أباهم. وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس، ثم قال: أيها الأمير، ماذا صنع الله به؟ أداله منهم، ورفع ذكره، وأعلى كلمته، وجعله على خزائن الأرض. فماذا صنع حين أكمل له أمره؟ وجمع له أهله؟ قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف:٩٢] يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه. قال الحكم، فأنا أقول: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ ولو لم أجد إلا ثوبي هذا لواريتكم تحته. وكتب ابن المقفع إلى صديق له، يسأله العفو عن بعض إخوانه، فلان هارب من زلته إلى عفوك. لائذ منك بك. واعلم أنه لن يزداد الذنب عظمًا. إلا ازداد العفو فضلًا. وأُتي عبد الملك بن مروان بأسارى بن الأشعث، فقال لرجاء بن حيوة، ما ترى؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر، فأعط الله ما يحب من العفو. فعفا عنهم. وروي أن زيادًا أخذ رجلًا من الخوارج، فأفلت منه، فأخذ أخًا له، فقال له: إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك فقال: أرأيت إن جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي؟ قال: نعم. قال: فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم، وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى. ثم تلا: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النَّجْم:٣٦-٣٨]، فقال زياد: خلوا سبيله؟ هذا رجل قد لقن حجته. وقيل مكتوب في الإنجيل، من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان.

فضيلة الرفق:

اعلم أن الرفق محمود، يضاده العنف الحدّة. والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة. وقد يكون سبب الحدة الغضب، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه، بحيث يدهش عن التفكر، ويمنع من التثبت. فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق. ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة، وحفظهما على حد الاعتدال. ولأجل هذا أثنى رسول الله ﷺ على الرفق فقال: «**إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق**» [رواه أحمد وصححه الألباني]، وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**من يحرم الرفق يحرم الخير كله**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**أيما والٍ ولي فرفق ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة**» [رواه مسلم بلفظ: اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به]، وقال ﷺ: «**تدرون من يَحرم على النار يوم القيامة؟ كل هين لين سهلٍ قريب**» [رواه الترمذي وصححه الألباني]، وقال ﷺ: «**التأني من الله والعجلة من الشيطان**» [رواه الترمذي وحسنه الألباني].

وعن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر، على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينًا وشمالًا. فقال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ولا يُنزع من شيء إلا شانه**» [رواه مسلم].

الآثار: بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله، فأمرهم أن يوافوه. فلما أتوه، قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، أيتها الرعية إن لنا عليكم حقًا، النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير. أيتها الرعاة، إن للرعية عليكم حقًا، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز، من حلم إمام ورفقه. وليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم، من جهل إمام وخرقه. واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه،

يـرزق العافيـة ممـن هودونه. وقال وهـب بن منبه: الرفـق ثنّى الحلم، وقـال بعضهم: ما أحسـن الإيمان يزينه العلم، وما أحسـن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق ومـا أضيـف شيء إلى شيء مثـل حلم إلى علـم. وقال عمرو بـن العاص لابنـه عبد الله: مـا الرفـق؟ قال: أن تكـون ذا أناة فتلايـن الولاة. قال: فـما الخرق؟ قال: معـاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك. وقال سـفيان لأصحابه: تدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد قال: أن تضع الأمور مواضعها، الشدة في موضعها واللين في موضعه، والسيف في موضعه والسوط في موضعه. وهذه إشارة إلى أنه لابد من مزج الغلظة باللين، والفظاظة بالرفق كما قيل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مُضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

فالمحمود وسـط بين العنف واللين، كما في سـائر الأخلاق: ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل، كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر. فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف، وإن كان العنف في محله حسنًا، كما أن الرفق في محله حسـن. فإذا كان الواجب هو العنف، فقد وافق الحق الهوى، وهو ألذ من الزبد بالشهد، وهكـذا قال عمر بـن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويروى أن عمرو بـن العاص، كتب إلى معاوية يعاتبه في التأني فكتب إليه معاوية: أما بعد. فإن التفهم في الخير زيادة رشـد، وإن الرشـيد من رشـد عن العجلة، وإن الخائب من خاب عـن الأناة، وإن المتثبت مصيب، أو كاد أن يكـون مصيبًـا. وإن العجل مخطئ، أو كاد أن يكون مخطئًـا. وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخـرق. ومـن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالى. وعن أبي عون الأنصارى، قال ما تكلم الناس بكلمة صعبة، إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها. وقال أبو حمزة الكوفي. لا تتخـذ مـن الخدم إلا ما لابد منه، فإن مع كل إنسـان شـيطانًا واعلـم أنهم لا يعطونك

بالشدة شيئًا، إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه. وقال الحسن: المؤمن وقاف متأن، وليس كحاطب ليل.

فهذا ثناء أهل العلم على الرفق، وذلك لأنه محمود، ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور. والحاجة إلى العنف قد تقع، ولكن على الندور. وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف، فيعطي كل أمر حقه، فإن كان قاصر البصيرة، أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع، فليكن ميله إلى الرفق، فإن النجح معه في الأكثر.

القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته

بيان ذم الحسد:

اعلم أن الحسد أيضًا من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب، فهو فرع فرعه، والغضب أصل أصله. ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى. وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة، وقال ﷺ في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته: «**لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا**» [متفقٌ عليه].

وقال أنس: كنا يومًا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فقال: «**يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة**» قال: فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه، قد علق نعليه في يده الشمال، فسلم. فلما كان الغد قال ﷺ مثل ذلك. فطلع ذلك الرجل. وقاله في اليوم الثالث، فطلع ذلك الرجل. فلما قام النبي ﷺ، تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال له: إني لاحيت أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا. فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت. فقال: نعم. فبات عنده ثلاث ليال، فلم يره يقوم من الليل شيئًا، غير أنه إذا تقلّب على فراشه ذكر الله تعالى، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر. قال غير إني ما سمعته يقول إلا خيرًا. فلما مضت الثلاث، وكدت

أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا، فأردت أن أعرف عملك، فلم أرك تعمل عملًا كثيرًا. فما الذي بلغ بك ذلك؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشًا ولا حسدًا، على خير أعطاه الله إياه. قال: عبد الله، فقلت له: هي التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق [رواه أحمد وصححه الألباني].

وقال ﷺ: «**ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطيرة والحسد وسأحدثكم بالمخرج من ذلك إذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض وإذا حسدت فلا تبغ**» [رواه ابن أبي الدنيا وضعفه الألباني]. وقال ﷺ: «**دب إليكم داء الأمم قلبكم الحسد والبغضاء والبغضاء هي الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم**» [رواه الترمذي وصححه الألباني]. ورُوي أن موسى عليه السلام، لما تعجل إلى ربه تعالى، رأى في ظل العرش رجلًا، فغبطه بمكانه. فقال إن هذا لكريم على ربه. فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره، وقال: أحدثك من عمله بثلاث. كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديه، ولا يمشي بالنميمة. وقال زكريا عليه السلام: قال الله تعالى: الحاسد عدو لنعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي.

وقال ﷺ: «**استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود**» [رواه الطبراني وأورده الألباني في الصحيحة برقم: ١٤٥٣].

الآثار: قال بعض السلف، أول خطيئة كانت الحسد. حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته، فأبى أن يسجد له، فحمله الحسد على المعصية. وحُكي أن عون بن عبد الله، دخل على الفضل بن المهلب، وكان يومئذ على واسط. فقال: إني أريد أن أعظك بشيء.

فقال: وما هو؟ قال: إياك والكبر، فإنه أول ذنب عُصيَ الله به، ثم قرأ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، وإياك والحرص، فإنه أخرج آدم من الجنة؛ا أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض، يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها، فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها، ثم قرأ: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِنْهَا ﴾ [البقرة: ٣٨] إلى آخر الآية. وإياك والحسد، فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده، ثم قرأ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٢٧]. وإذا ذكر أصحاب رسول ﷺ فأمسك. وإذا ذكر القدر فاسكت. وإذا ذكرت النجوم فاسكت.

وقال بكر بن عبد الله: كان رجل يغشى بعض الملوك، فيقوم بحذاء الملك، فيقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه، فإن المسيء سيكفيكه إساءته. فحسده رجل على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى الملك، فقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول، زعم أن الملك أبخر. فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر. فقال له: انصرف حتى أنظر. فخرج من عند الملك، فدعا الرجل إلى منزله، فأطعمه طعامًا فيه ثوم. فخرج الرجل من عنده، وقام بحذاء الملك على عادته فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه، فإن المسيء سيكفيكه إساءته. فقال له الملك: ادن مني. فدنا منه، فوضع يده على فيه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم. فقال الملك في نفسه: ما أرى فلانًا إلا قد صدق. قال: وكان الملك لا يكتب بخطه إلَّا بجائزة أوصلة. فكتب له كتابًا بخطه إلى عامل من عماله، إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه، واسلخه، واحش جلده تبنا، وابعث به إليّ، فأخذ الكتاب وخرج، فلقيه الرجل الذي سعى به، فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: خط الملك لي بصلة. فقال: هبه لي. فقال: هو لك. فأخذه ومضى به إلى العامل، فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك. قال: إن الكتاب ليس هو لي، فالله الله في أمري حتى تراجع الملك. فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه، وسلخه، وحشا جلده تبنا، وبعث به. ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته،

وقال: مثل قوله فعجب الملك، وقال: ما فعل الكتاب؟ فقال: لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له. قال الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر. قال: ما قلت ذلك. قال: فلم وضعت يدك على فيك قال لأنه أطعمني طعامًا فيه ثوم فكرهت أن تشمه. قال: صدقت ارجع إلى مكانك، فقد كفى المسيء إساءته.

وقال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة؟ وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير في النار؟ وقال رجل للحسن: هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب، نعم، ولكن غمِّه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدًا ولا لسانًا [قلتُ: يعني ما دام خواطر لم تستقر]، وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه، وقل حسده، وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه، إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها، ولذلك قيل:

كل العداوات قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ، وحسب الحسود ما يلقى. وقال أعرابي: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه. وقال الحسن: يا ابن آدم، لم تحسد أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه، فلم تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك، فلم تحسد من مصيره إلى النار؟ وقال بعضهم: الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلا. ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضًا. ولا ينال من الخلق إلا جزعًا وغمًا. ولا ينال عند النزع إلا شدة وهو ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالًا.

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه:

اعلم أنه لا حسد إلَّا على نعمة. فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة، فلك فيها حالتان:

إحداهما- أن تكره تلك النعمة، وتحب زوالها، وهذه الحال تُسمّى حسدًا. فالحسد حده كراهة النعمة، وحب زوالها عن المُنعَم عليه.

الحالة الثانية- أن لا تحب زوالها، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها. وهذه تسمى غبطة. وقد تختص باسم المنافسة. وقد تُسمّى المنافسة حسدًا، والحسد منافسة، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني.

فأما الأول- فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر، وهو يستعين بها على تهييج الفتنة، وإفساد ذات البين، وإيذاء الخلق، فلا يضرك كراهتك لها، ومحبتك لزوالها فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة، بل من حيث هي آلة الفساد. ولو أمنت فساده، لم يغمك بنعمته. ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها، وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم، من غير أن يكون لك منه مضرة، وإلى هذا أشار القرآن بقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة يتلازمان.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩] وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأخبر بما في قلوبهم بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٨ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٨-٩] فلما كرهوا حب أبيهم له، وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه، فغيبوه عنه. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩] أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون فأثنى عليهم بعدم الحسد.

وَقَالَ تَعَالَىٰ في معرض الإنكار: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ

﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:٢١٣] قيل في التفسير حسدًا، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:١٤] فأنزل الله العلم ليجمعهم، ويؤلف بينهم على طاعته، وأمرهم أن يتألفوا بالعلم، فتحاسدوا واختلفوا، إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة، وقبول القول، فرد بعضهم على بعض. قال ابن عباس: كانت اليهود قبل أن يبعث النبي ﷺ، إذا قاتلوا قومًا، قالوا: نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله، وبالكتاب الذي تنزله، إلا ما نصرتنا. فكانوا ينصرون. فلما جاء النبي ﷺ من ولد إسماعيل عليه السلام عرفوه، وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩] إلى قوله: ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا﴾ [البقرة:٩٠] أي حسدًا. وقالت صفية بنت حيي للنبي ﷺ: جاء أبي وعمي من عندك يومًا، فقال أبي لعمي: ما تقول فيه؟ قال: أقول إنه النبي الذي بشر به موسى قال: فما ترى؟ قال: أرى معاداته أيام الحياة [رواه ابن إسحاق وهو على شهرته منقطع]. فهذا حكم الحسد في التحريم.

وأما المنافسة، فليست بحرام. بل هي إما واجبة، وإما مندوبة، وإما مباحة. وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة، والمنافسة بدل الحسد. قال قثم بن العباس: لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي ﷺ، فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة، قالا لعلي حين قال لهما: لا تذهبا إليه، فإنه لا يؤمّركما عليها، فقالا له ما هذا منك إلا نفاسة. والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك [رواه مسلم ولكن إنما هو الفضل والمطلب بن ربيعة وليس قثم]، أي هذا منك حسد، وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة، والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة. والذي يدل على إباحة المنافسة، قوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦] وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١] وإنما المسابقة عند خوف الفوت، وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما، إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه، فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها. فكيف وقد صرح

رسول الله ﷺ بذلك فقال: «**لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله علمًا فهو يعمل به ويعلمه الناس**» [متفقٌ عليه] ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الأنماري فقال: «**مثل هذه الأمة مثل أربعة؛ رجل آتاه الله مالًا وعلمًا فهو يعمل بعلمه في ماله ورجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالًا فيقول رب لو أن لي مالًا مثل مال فلانٍ لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء**» وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله، فيعمل مثل ما يعمل، من غير حب زوال النعمة عنه قال: «**ورجل آتاه الله مالًا ولم يؤته علمًا فهو ينفقه في معاصي الله ورجل لم يؤته علمًا ولم يؤته مالًا فيقول: لو أن لي مثل مال فلانٍ لكنت أنفقه في مثل ما أنفقه فيه من المعاصي فهما في الوزر سواء**» [رواه الترمذي وقال الألباني: صحيح] فذمه رسول الله ﷺ من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله.

فإذًا لا حرج على من يغبط غيره في نعمة، ويشتهي لنفسه مثلها، مهما لم يحب زوالها عنه، ولم يكره دوامها له. نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة، كالإيمان والصلاة، والزكاة، فهذه المنافسة واجبة. وهو أن يحب أن يكون مثله، لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضيًا بالمعصية، وذلك حرام. وإن كانت النعمة من الفضائل، كإنفاق الأموال في المكارم والصدقات، فالمنافسة فيها مندوب إليها. وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح، فالمنافسة فيها مباحة. وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته، واللحوق به في النعمة، وليس فيها كراهة النعمة، وكان تحت هذه النعمة أمران، أحدهما: راحة المنعم عليه، والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه. وهو يكره أحد الوجهين، وهو تخلف نفسه، ويحب مساواته له. ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات، نعم ذلك ينقص من الفضائل، ويناقض الزهد، والتوكل، والرضا، ويحجب عن المقامات الرفيعة، ولكنه لا يوجب العصيان.

وههنا دقيقة غلمضة، وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة، وهو يكره تخلفه ونقصانه، فلا محالة يحب زوال النقصان وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود فإذا انسد أحد الطريقين، فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود، كان ذلك أشفى عنده من دوامها، إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره. وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه. فإن كان بحيث لو ألقي الأمر إليه، وُردَّ إلى اختياره، لسعى في إزالة النعمة عنه، فهو حسود حسدًا مذمومًا. وإن كان تحجزه التقوى عن إزالة ذلك، فيعفى عما يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده، مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه، ولعله المعني بقوله ﷺ: «**ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن الحسد والظن والطيرة**» ثم قال «**وله منهن مخرج إذا حسدت فلا تبغ**» [قلتُ: لا يصح مرفوعًا ولكن ورد عن الحسن البصري بمعناه] أي إن وجدت في قلبك شيئًا فلا تعمل به. وبعيد أن يكون الإنسان مريد اللحاق بأخيه في النعمة، فيعجز عنها، ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة. إذ يجد لا محالة ترجيحًا له على دوامها. فهذا الحد من المنافسة يزاحم الحسد الحرام، فينبغي أن يحتاط فيه، فإنه موضع الخطر [قلتُ: ولكن ينبغي مع كراهته لذلك من نفسه أن يدعو الله لأخيه بدوام النعمة وكذا يدعو لنفسه بزوال ذلك الخاطر السيء عنه]. وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوي الإيمان، رزين التقوى.

ومهما كان محركه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره، جره ذلك إلى الحسد المذموم وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه، حتى ينزل هو إلى مساواته، إذ لم يقدر هو أن يرتقي إلى مساواته بإدراك النعمة، وذلك لا رخصة فيه أصلًا، بل هو حرام، سواء كان في مقاصد الدين، أو مقاصد الدنيا، ولكن يعفى عنه في ذلك ما لم يعمل به إن شاء

الله تعالى وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له. فهذه حقيقة الحسد وأحكامه، وأما مراتبه فأربع:

الأولى- أن يحب زوال النعمة عنه: وإن كان ذلك لا ينتقل إليه. وهذا غاية الخبث.

الثانية- أن يحب زوال النعمة إليه: لرغبته في تلك النعمة، مثل رغبته في دار حسنة، أو امرأة جميلة، أو ولاية نافذة، أو سعة نالها غيره، وهو يحب أن تكون له، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه، ومكروهه فقد النعمة لا تنعمُّ غيره بها.

الثالثة- ألا يشتهي عينها لنفسه، بل يشتهي مثلها. فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما.

الرابعة- أن يشتهي لنفسه مثلها، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه. وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا. والمندوب إليه إن كان في الدين. والثالثة فيها مذموم وغير مذموم. والثانية أخف من الثالثة والأولى مذموم محض. وتسمية الرتبة الثانية حسدًا فيه تجوز وتوسع، ولكنه مذموم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢] فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم.

بيان أسباب الحسد والمنافسة:

أما المنافسة، فسببها حب ما فيه المنافسة. فإن كان ذلك أمرًا دينيًا، فسببه حب الله تعالى وحب طاعته. وإن كان دنيويًا، فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها. وإنما نظرنا الآن في الحسد المذموم، ومداخله كثيرة جدًا؛ ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب، المداراة، والتعزز، والكبر، والتعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس وبخلها. فإنه إنما يكره النعمة على غيره، إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير وهذا لا يختص بالأمثال، بل يحسد الخسيس الملك، بمعنى أنه يحب زوال نعمته، لكونه

مبغضًا له بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبه. وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه، وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه، وهو المراد بالتعزز.

وأما أن يكون في طبعه أن يتكبر على المحسود، ويمتنع ذلك عليه لنعمته. وهو المراد بالتكبر وإما أن تكون النعمة عظيمة، والمنصب عظيمًا، فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة، وهو المراد بالتعجب. وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته، بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه. وإما أن يكون يحب الرياسة التي تنبني على الاختصاص بنعمة لا يساوي فيها. وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب، بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، ولابد من شرح هذه الأسباب.

السبب الأول- العداوة والبغضاء. وهذا أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرض بوجه من الوجوه، أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد. والحقد يقتضي التشفي والانتقام. فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه، أحب أن يتشفى منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى: فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها، وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه، وأنها لأجله. ومهما أصابته نعمة، ساءه ذلك؛ لأنه ضد مراده. وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله، حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه، بل أنعم عليه. وبالجملة فالحسد يَلْزم منه البغض والعداوة ولا يفارقهما. وإنما غاية التقي أن لا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه. فأما أن يبغض إنسانًا ثم يستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن. وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعني الحسد بالعداوة. إذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩-١٢٠]. وكذلك قال تعالى: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]. والحسد بسبب البغض ربما يفضي إلى التنازع والتقاتل، واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل، والسعاية، وهتك الستر، وما يجري مجراه.

السبب الثاني- التعزز. وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره. فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية، أو علمًا، أو مالًا، خاف أن يتكبر عليه، وهو لا يطيق تكبره، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه، وليس من غرضه أن يتكبر، بل غرضه أن يدفع كبره فإنه قد رضي بمساواته مثلًا، ولكن لا يرضى بالترفع عليه.

السبب الثالث- الكبر. وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه، ويستصغره ويستخدمه، ويتوقع منه الانقياد له، والمتابعة في أغراضه. فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره، ويترفع عن متابعته، أو ربما يتشوف إلى مساواته، أو إلى أن يرتفع عليه، فيعود متكبرًا بعد أن كان متكبرًا عليه. ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ، إذ قالوا: كيف يتقدم علينا غلام يتيم! وكيف نطأطئ رءوسنا فقالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له، ونتبعه إذا كان عظيمًا. وقال تعالى يصف قول قريش: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] كالاستحقارلهم والأنفة منهم.

السبب الرابع- التعجب. كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة، إذ قالوا: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة، والوحي، والقرب من الله تعالى، بشر مثلهم. فحسدوهم، وأحبوا زوال النبوة عنهم، جزعًا أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة، لا عن قصد تكبر، وطلب رياسة، وتقدم عداوة، أو سبب آخر من سائر الأسباب وقالوا متعجبين: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١] وقال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

السبب الخامس- الخوف من فوت المقاصد. وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد. فإن كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عونًا له في الانفراد بمقصوده.

ومن هذه الجنس تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية، وتحاسد الأخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين، للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال. وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة من قلبه. للتوصل به إلى المال والجاه. وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة، إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم. وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة محصورين، إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له.

السبب السادس- حب الرياسة، وطلب الجاه لنفسه، من غير توصل به إلى مقصود وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنه، وأنه لا نظير له، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك، وأحب موته، أو زوال النعمة عنه، التي بها يشاركه في المنزلة، من شجاعة، أو علم، أو عبادة، أو صناعة، أو جمال، أو ثروة أو غير ذلك مما ينفرد هو به، ويفرح بسبب تفرده. وليس السبب في هذا عداوة، ولا تعززًا، ولا تكبرًا على المحسود، ولا خوفًا من فوات مقصود، سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد. وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس، للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة. وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون به، خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم، مهما نسخ علمهم.

السبب السابع- خبث النفس وشحها بالخير لعبادة الله تعالى. فإنك تجد من لا يشتغل برياسة، وتكبر، ولا طلب مال، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى، فيما أنعم الله به عليه، يشق ذلك عليه. وإذا وصف له اضطراب أمور الناس، وإدبارهم، وفوات مقاصدهم، وتنغص عيشهم، فرح به. فهو أبدًا يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته. ويقال البخيل من

يبخل بمال نفسه، والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره. فهذا يبخل بنعمة الله تعالى، على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة. وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس، ورذالة في الطبع، عليه وقعت الجبلة، ومعالجته شديدة. لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب، أسبابه عارضة يتصور زوالها، فيطمع في إزالتها. وهذا خبث في الجبلة، لا عن سبب عارض فتعسر إزالته. فهذه هي أسباب الحسد، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب، أو أكثرها، أو جميعها في شخص واحد، فيعظم فيه الحسد بذلك، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة، بل ينهتك حجاب المجاملة، وتظهر العداوة بالمكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب. وقلما يتجرد سبب واحد منها.

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والأخوة وبني العم والأقارب وتأكده، وقلته في غيرهم وضعفه:

اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر عليه، ولأنه يتكبر، ولأنه عدو، ولغيرذلك من الأسباب. وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط، يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات، ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض، نفر طبعه عنه، وأبغضه، وثبت الحقد في قلبه، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه، ويكافئه على مخالفته لغرضه، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه، وتترادف جملة من هذه الأسباب. إذ لا رابطة بين شخصين في بلدتين متنائيتين، فلا يكون بينهما محاسدة، وكذلك في محلتين. نعم إذا تجاورا في مسكن، أو سوق، أو مدرسة، أو مسجد وتواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما، فيثور من التناقض والتنافر والتباغض، ومنه تثور بقية أسباب الحسد. ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد

العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز، وليس بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة.

ويحسد الرجل أخاه وابن عمه، أكثر مما يحسد الأجانب. والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها، أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته، لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف، فلا يتزاحموا على المقاصد، إذ مقصد البزاز الثروة، ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون، وإنما ينازعه فيه بزاز آخر. إذ حريف البزاز لا يطلبه الإسكاف بل البزاز. ثم مزاحمة البزاز المجاور له، أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق. فلا جرم يكون حسده للجار أكثر.

وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم، لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها، وينفرد بهذه الخصلة، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض. وكذلك يحسد العالم العالم. ولا يحسد الشجاع. ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص.

فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين، فلذلك يكثر الحسد بينهما. نعم من اشتد حرصه على الجاه، وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه، فإنه يحسد كل من هو في العالم، وإن بعد، ممن يسامته في الخصلة التي يتفاخر بها.

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإنّ الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين. أما الآخرة فلا ضيق فيها. وإنما مثال الآخرة نعمة العلم، فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته، وملائكته، وأنبيائه، وملكوت سمواته وأرضه، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضًا، لأن المعرفة لا تضيق عن العارفين، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم، ويفرح بمعرفته، ويلتذبه، ولا تنقص لذة واحدة بسبب غيره، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس، وثمرة الاستفادة والإفادة فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة، لأن مقصدهم معرفة الله تعالى، وهو بحر واسع لا ضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله تعالى

ولا ضيق أيضًا فيما عند الله تعالى، لأن أجمل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه، وليس فيها ممانعة ومزاحمة، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم.

نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال، والجاه، تحاسدوا، لأن المال أعيان وأجسام، إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر. ومعنى الجاه ملك القلوب. ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم، انصرف عن تعظيم الآخر، أو نقص عنه لا محالة، فيكون ذلك سببًا للمحاسدة وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى؛ لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها، وأن يفرح بذلك. والفرق بين العلم والمال، أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن اليد الأخرى. والعلم في قلب العالم مستقر، ويحل في قلب غيره بتعلمه، من غير أن يرتحل من قلبه. والمال أجسام وأعيان، ولها نهاية: فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض، لم يبق بعده مال يتملكه غيره. والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه. فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته، وملكوت أرضه وسمائه، وصار ذلك ألذ عنده من كل نعيم، ولم يكن ممنوعًا منه، ولا مُزَاحمًا فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق، لأن غيره أيضًا لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته، بل زادت لذته بمؤانسته، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام، أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة. فإن نعيم العارف وجنته معرفته، التي هي صفة ذاته، يأمن زوالها، وهو أبدا يجني ثمارها. فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه، وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة، بل قطوفها دانية. فهو وإن غمض العين الظاهرة، فروحه أبدا ترتع في جنة عالية، ورياض زاهرة. فإن فرض كثرة في العارفين، لم يكونوا متحاسدين، بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، فهذا حالهم وهم بعدُ في الدنيا. فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء، ومشاهدة المحبوب في العقبى! فإذًا لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الجنة في الدنيا محاسدة، لأن الجنة لا مضايقة فيها. ولا مزاحمة، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى، التي لا مزاحمة

فيهـا في الدنيـا أيضًا. فأهل الجنة بالضرورة برآء من الحسـد في الدنيـا والآخرة جميعًا. بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين، إلى مضيق سجين. ولذلك وسم به الشيطان اللعين، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما خص به من الاجتباء، ولما دُعي إلى السجود استكبر وأبى، وتمرد وعصى.

فقد عرفت أنه لا حسـد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل، ولهذا لا ترى الناس يتحاسـدون على النظر إلى زينة السماء، ويتحاسدون على رؤية البساتين، التي هـي جزء يسـير من جملـة الأرض، وكل الارض لا وزن لها بالإضافة إلى السـماء، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار، فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسدٌ أصلًا.

فعليك إن كنت بصيرًا، وعلى نفسـك مشـفقًا، أن تطلب نعمـة لا زحمة فيها، ولذة لا كـدر لهـا، ولا يوجد ذلـك في الدنيا إلا في معرفـة الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة صفاتـه وأفعاله، وعجائب ملكوت السـموات والأرض، ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضًا. فـإن كنت لا تشـتاق إلى معرفة الله تعالى، ولم تجد لذتهـا، وفتر عنك رأيك، وضعفت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور، إذ العنين لا يشـتاق إلى لذة الوقاع، والصبي لا يشـتاق إلى لـذة الملك فإن هذه لذات يختص بإدراكهـا الرجال دون الصبيان والمخنثين. فكذلك لذة المعرفـة، يختص بإدراكها الرجـال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] ولا يشـتاق إلى هذه اللذة غيرهم، لأن الشـوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف ولم يشـتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي مع المحرومين: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب:

اعلـم أن الحسـد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تـداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرض الحسـد، هو أن تعرف تحقيقًا أن الحسد ضرر عليك

في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما، ومهما عرفت هذا عن بصيرة، ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك، فارقت الحسد لا محالة.

أما كونه ضررًا عليك في الدين. فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه وخفي حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته. وهذه جناية على حدقة التوحيد، وقذى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين. وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلًا من المؤمنين، وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم. وهذه خبائث في القلب، تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب، وتمحوها كما يمحو الليل النهار.

وأما كونه ضررًا عليك في الدنيا، فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا، أو تتعذب به ولا تزال في كَمَدٍ وغمّ، إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغمومًا، ومحرومًا، ومتشعب القلب، ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك، وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقدًا ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولو لم تكن بالبعث والحساب، لكان مقتضى الفطنة. إن كنت عاقلًا، أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته، مع عدم النفع. فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة، فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله!! بل مع ضرر يحتمله، وألم يقاسيه، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة.

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة، فلابد أن يدوم إلى أجل معلوم، قدره الله سبحانه فلا حيلة في دفعه. بل كل شيء عنده بمقدار، ولكل أجل كتاب. ولذلك

شكا بني من الأنبياء، من امرأة ظالمة مستولية على الخلق، فأوحى الله إليه فر من قدامها، حتى تنقضي أيامها. أي ما قدرناه في الأزل لا سبيل إلى تغييره، فاصبر حتى تنقضي المدة التي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها. ومهما لم تزل النعمة بالحسد، لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا يكون عليه إثم في الآخرة. ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي. وهذا غاية الجهل، فإنه بلاء تشتهيه أولًا لنفسك، فإنك أيضًا لا تخلو عن عدو يحسدك، فلو كانت النعمة تزول بالحسد، لم يُبْقِ الله تعالى عليك نعمة، ولا على أحد من الخلق، ولا نعمة الإيمان أيضًا، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان. قال الله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البَقَرَة:١٠٩]، إذ ما يريده الحسود لا يكون. نعم هو يضل بإرادته الضلال لغيره، فإن إرادة الكفر كفر فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد، فكأنما يريد أن يُسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار، وكذا سائر النعم.

وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك، فهذا غاية الجهل والغباوة. فإن كل واحد من حمقى الحساد أيضًا، يشتهي أن يُخص بهذه الخاصية، ولست بأولى من غيرك، فنعمة الله تعالى عليك في أنّها لم تزل النعمة بالحسد، مما يجب عليك شكرها، وأنت بجهلك تكرهها.

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا، فواضح. أما منفعته في الدين، فهو أنه مظلوم من جهتك، لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل، بالغيبة، والقدح فيه، وهتك ستره، وذكر مساويه، فهذه هدايا تهديها إليه: أعني أنك بذلك تهدي إليه حسناتك، حتى تلقاه يوم القيامة مفلسًا، محرومًا عن النعمة، كما حرمت في الدنيا عن النعمة. فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل. نعم كان لله عليه نعمة، إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه، فأضفت إليه نعمة إلى نعمة، وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة.

وأما منفعته في الدنيا، فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء، وغمهم، وشقاوتهم، وكونهم معذبين، مغمومين، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد. وغاية أماني أعدائك، أن يكونوا في نعمة، وأن تكون في غم وحسرة بسببهم. وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم. ولذلك لا يشتهي عدوك موتك، بل يشتهي أن تطول حياتك، ولكن في عذاب الحسد، لتنظر إلى نعمة الله عليه، فينقطع قلبك حسدًا. ولذلك قيل:

لا مات أعداؤك بل خُلِّدوا ... حتى يروا فيك الذي يكمد

لازلت محسودًا على نعمة ... فإنما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك، أعظم من فرحه بنعمته. ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه. لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده. فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد، إلا كما يشتهيه عدوك.

فإذا تأملت هذا، عرفت أنك عدوّ نفسك، وصديق عدوك، إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة، وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة، وصرت مذمومًا عند الخالق والخلائق، شقيًا في الحال والمآل، ونعمة المحسود دائمة، شئت أم أبيت باقية.

ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك، حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك، لأنه لما رآك محرومًا من نعمة العلم، والورع، والجاه، والمال، الذي اختص به عدوك عنك، خاف أن تحب ذلك له، فتشاركه في الثواب بسبب المحبة، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكًا في الخير، ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر في الدين لم يفته ثواب الحب لهم، مهما أحب ذلك. فخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه، فتفوز بثواب الحب، فبغَّضه إليك، حتى لا تلحقه بحبك، كما لم تلحقه بعملك. وقد قال أعرابي للنبي ﷺ: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال النبي ﷺ: «**المرء مع من أحب**» [متفقٌ عليه] وقام أعرابي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟

فقال: «**ما أعددت لها؟**» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله فقال ﷺ: «**أنت مع من أحببت**» قال أنس: فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ. إشارة إلى أن أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله. قال أنس: فنحن نحب رسول الله، وأبا بكر، وعمر، ولا نعمل مثل عملهم، ونرجو أن نكون معهم [متفقٌ عليه].

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالمًا فكن عالمًا فإن لم تستطع أن تكون عالمًا فكن متعلمًا، فإن لم تستطع أن تكون متعلمًا فأحبهم فإن لم تستطع فلا تبغضهم. فقال: سبحان الله، لقد جعل الله لنا مخرجًا.

فانظر الآن كيف حسدك إبليس، ففوَّت عليك ثواب الحب، ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك، وحملك على الكراهة، حتى أثمت. وكيف لا، وعساك تحاسد رجلًا من أهل العلم، وتحب أن يخطئ في دين الله تعالى، وينكشف خطؤه ليفتضح، وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم، أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم، وأي إثم يزيد على ذلك! فليتك فاتك اللحاق به، ثم اغتممت بسببه، وسلمت من الإثم وعذاب الآخرة، بل قد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في عدوك، بل على نفسك.

بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمي سهمًا إلى عدوه ليصيب مقتله، فلا يصيبه، بل يرجع إلى حدقته اليمنى، فيقلعها، فيزيد غضبه، فيعود ثانية، فيرمي أشد من الأولى، فيرجع إلى عينه الأخرى، فيعميها، فيزداد غيظه، فيعود ثالثة، فيعود على رأسه فيشجه، وعدوه سالم في كل حال، وهو إليه راجع مرة بعد أخرى، وأعداؤه حوله يفرحون به، ويضحكون عليه. وهذا حال الحسود؛ وسخرية الشيطان منه.

بل حالك في الحسد أقبح من هذا، لأن الرمية العائدة لم تفوَّت إلا العينين، ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة، والحسد يعود بالإثم، والإثم لا يفوت بالموت، ولعله يسوقه إلى

غضب الله، وإلى النار. فلأن تذهب عينه في الدنيا، خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار، فيقلعها لهيب النار.

فانظر كيف انتقم الله من الحاسد، إذ أراد زوال النعمة عن المحسود، فلم يزلها عنه، ثم أزالها عن الحاسد، إذ السلامة من الإثم نعمة، والسلامة من الغم والكمد نعمة، وقد زالتا عنه، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فَاطِر:٤٣] وربما يُبتلى بعين ما يشتهيه لعدوه، وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويُبتلى بمثلها، حتى قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما تمنيت لعثمان شيئًا إلا نزل بي، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت.

فهذا إثم الحسد نفسه، فكيف ما يجر إليه الحسد من الاختلاف، وجحود الحق، وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشفي من الأعداء، وهو الداء الذي فيه هلك الأمم السالفة.

فهذه هي الأدوية العلمية، فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف، وقلب حاضر، انطفأت نار الحسد من قلبه، وعلم أنه مهلك نفسه، ومفرح عدوه، ومسخط ربه، ومنغص عيشه.

وأما العمل النافع فيه، فهو أن يحكم الحسد، فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه. فإن بعثه الحسد على القدح في محسوده، كلف لسانه المدح له، والثناء عليه. وإن حمله على التكبر عليه، ألزم نفسه التواضع له، والاعتذار إليه. وإن بعثه على كف الإنعام عليه، ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه. فمهما فعل ذلك عن تكلف، وعرفه المحسود، طاب قلبه وأحبه. ومهما ظهر حبه، عاد الحاسد فأحبه، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد، لأن التواضع، والثناء، والمدح، وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه. ويسترقه، ويستعطفه، ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان. ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول، فيطيب قلبه، ويصير ما تكلفه أولًا طبعًا آخرًا. ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له، لو تواضعت وأثنيت عليه، حملك العدو على العجز،

أو على النفاق أو الخوف، وأن ذلك مذلة ومهانة. وذلك من خدع الشيطان ومكايده. بل المجاملة تكلفًا كانت أو طبعًا، تكسر سورة العداوة من الجانبين، وتقل مرغوبها، وتعود القلوب التآلف والتحاب، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد، وغم التباغض.

فهذه هي أدوية الحسد، وهي نافعة جدًا، إلا أنها مُرة على القلوب جدًا. ولكن النفع في الدواء المرء فمن لم يصبر على مرارة الدواء، لم ينل حلاوة الشفاء. وإنما تهون مرارة هذا الدواء، أعني التواضع للأعداء، والتقرب إليهم بالمدح والثناء، بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها، وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى، وحب ما أحبه، وعزة النفس وترفعها عن الدنيا والراذئل ولا طريق إلى الخلاص من هذا إلا بأحد أمرين، إما بأن يكون ما تريد، أو تريد ما يكون. والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه. وأما الثاني فللمجاهدة فيه مدخل، وتحصيله بالرياضة ممكن، فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلي.

فأما الدواء المفصل، فهو تتبع أسباب الحسد، من الكبر وغيره، وعزة النفس، وشدة الحرص على ما لا يغني. فإنها مواد هذا المرض، ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة. فإن لم تُقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى، ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده. فإنه ما دام محبًا للجاه، فلابد وأن يحسد من استاثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه، ويغمه ذلك لا محالة. وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه، ولا يظهر بلسانه ويده، فأما الخلو عنه رأسًا فلا يمكنه، والله الموفق.

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب:

اعلم أن المؤذى ممقوت بالطبع، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالبًا. فإذا تيسرت له نعمة، فلا يمكنك أن لا تكرهها له، حتى يستوي عندك حسن حال عدوك وسوء حاله بل لا تزال في النفس بينهما تفرقة، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له. ولكن إن قوي ذلك فيك، حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل، بحيث يعرف

ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية، فأنت حسود عاص بحسدك. وإن كففت ظاهرك بالكلية إلا إنك بباطنك تحب زوال النعمة، وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة، فأنت أيضًا حسود عاص. لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ [الحشر: ٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠]. أما الفعل، فهو غيبة وكذب، وهو عمل صادر عن الحسد، وليس هو عين الحسد. بل محل الحسد القلب دون الجوارح. نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها، بل هو معصية بينك وبين الله تعالى، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح.

فأما إذا كففت ظاهرك، وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع، من حب زوال النعمة، حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبعها، فتكون تلك الكراهة من جهة العقل، في مقابلة الميل من جهة الطبع، فقد أديت الواجب عليك، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا.

فأما تغيير الطبع، ليستوي عنده المؤذي والمحسن، ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة، أو تنصب عليهما من بلية سواء، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه، ما دام ملتفتا إلى حظوظ الدنيا، إلا أن يصير مستغرقًا بحب الله تعالى، فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة، وهي عين الرحمة. ويرى الكل عباد الله، وأفعالهم بقدر الله، ويراهم مسخرين. وذلك إن كان، فهو كالبرق الخاطف لا يدوم، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه، ويعود العدو إلى منازعته، أعني الشيطان، فإنه ينازع بالوسوسة. فمهما قابل ذلك بكراهته، وألزم قلبه هذه الحالة، فقد أدى ما كلفه.

وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يكون حسودًا إذا لم يظهر الحسد على جوارحه، لما روي عن الحسن، أنه سئل عن الحسد فقال: غمه فإنه لا يضرك ما لم تبده. وروى عنه موقوفًا

ومرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاثة لا يخلو منهن المؤمن وله منهن مخرج**» فمخرجه من الحسد أن لا يبغي.

والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه، من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل، في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو. وتلك الكراهة تمنعه من البغي والإيذاء، فإن جميع ما ورد من الأخبار في ذم الحسد، يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم. ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد. فإذًا كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد. والأظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار، ومن حيث المعنى. إذ يبعد أن يعفى عن العبد في إرادته إساءة مسلم، واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة. وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال.

أحدها- أن تحب مساءتهم بطبعك، وتكره حبك لذلك، وميل قلبك إليه بعقلك، وتمقت نفسك عليه، وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك، وهذا معفو عنه قطعًا، لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه.

الثاني- أن تحب ذلك، وتظهر الفرح بمساءتهم، إما بلسانك أو بجوارحك، فهذا هو الحسد المحظور قطعًا.

الثالث- وهو بين الطرفين، أن تحسد بالقلب، من غير مقت لنفسك على حسدك، ومن غير إنكار منك على قلبك، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه، وهذا في محل الخلاف. والظاهر أنه لا يخلو عن إثم، بقدر قوة ذلك الحب وضعفه، والله تعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل